تأثر الشعر بأحداث القضية وصولاً إلى القدس والعائلات وحركة المقاومة

كانت لطبقة ملاك الأراضي السيطرة المطلقة على الحياة السياسية الفلسطينية. ولم تلعب البرجوازية الفلسطينية دوراً فعالاً في الساحة السياسة يستطيع تقديم بديل لسياسات ملاك الأراضي التقليدية الرجعية، ويرجع ذلك إلى تشابك العلاقات والمصالح بين ملاك الأراضي والبرجوازية الصاعدة، وانحدار الأخيرة من أصول إقطاعية، وتحجيم قدرتها بوساطة رأس المال اليهودي. واتسمت الحياة السياسية بمنافسة حامية بين عائلات كبار ملاك الأراضي. بدأت المنافسة بين آل الحسيني وآل الخالدي في القرن التاسع عشر، ثم تحولت لاحقاً إلى صراع حامي الوطيس بين آل الحسيني وآل النشاشيبي[58].

لعبت العائلات دوراً رجعياً في حركة المقاومة، إذ حاولت دائماً توجيه مشاعر غضب الجماهير الفلسطينية تجاه اليهود فقط وتفادي الصراع مع قوات الاحتلال البريطاني. وعمدت في معظم الأحوال إلى اتّباع أساليب سلبية غير راديكالية اقتصرت على المذكرات والعرائض والاحتجاجات المكتوبة والمؤتمرات التي تعقد بتصريح من حكومة الانتداب التي كانت تخرج في النهاية بقرارات "معتدلة"[59]، وفي وقت الأزمات الثورية حرصت العائلات على كبح حركة الجماهير، إذ كانوا في حالة خوف دائمة من احتمالية خروج زمام الأمور من أيديها، وخوف من أن ازدياد راديكالية فلاحينها قد ينقلب عليها بسبب

[58] الحوت،بيان نويهض، ص 176.

[59] الموسوعة الفلسطينية. الجزء الأول. دمشق: هيئة الموسوعة الفلسطينية، 1984. ص 611.

الأوضاع المزرية التي عاشها الفلاح الفلسطيني نتيجة للقهر والاستغلال الذي مورس ضده بواسطة هذه العائلات.

وتسابقت العائلات- في ظل المنافسة والصراع بينهما- إلى محاولة التقرب من البريطانيين من أجل الحصول على رضا المندوب السامي وتولي مناصب قيادية محلية. واستغلت كل عائلة الحركة الوطنية لتحقيق مكاسب عائلية لها على حساب الآخرين. واستفاد البريطانيون من هذه المنافسة وعملوا على تعميقها لإضعاف وتفريق صفوف الحركة[60].

بدأت العائلات- منذ فبراير 1919- في عقد سلسلة من المؤتمرات السياسية السنوية والنصف سنوية محاولةً خلق آلية تستطيع بها السيطرة على الحركة الجماهيرية. وبالطبع كان معظم أعضاء هذه المؤتمرات من كبار ملاك الأراضي وأبناء البرجوازية الفلسطينية. وقد تم انتخاب "لجنة تنفيذية" للمؤتمر العربي الثالث في نهاية عام 1920، واستمر عملها حتى المؤتمر السابع، وتم إسناد رئاسة المؤتمر إلى موسى كاظم الحسيني الذي بقى حتى وفاته في عام 1934 رئيساً للجنة التنفيذية وجميع المؤتمرات الوطنية. وقد تقدمت بعض العناصر بطلب للمؤتمر بضرورة إنشاء هيئات عمالية وفلاحية، وبالطبع قوبل الطلب بالرفض من النخبة الفلسطينية في المؤتمر[61]. وفي مذكرتها للجنة التنفيذية للمؤتمر طالبت القيادة الفلسطينية البريطانيين بوقف الهجرة اليهودية باسم محاربة البلشفية![62]

لم تمنع سيطرة العائلات على الحياة السياسية الانتفاضات والثورات العفوية التي كانت تندلع من وقت لآخر بين صفوف الجماهير الفلسطينية. فشهدت الفترة (1919-

---

[60] مارشال، فيل، الصهيونية والامبريالية والمقاومة الفلسطينية، ص 60.

[61] الحوت، بيان نويهض، القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين، ص 140 - 143.

[62] المقاومة الفلسطينية: الواقع والتوقعات. بيروت: دار الطليعة، 1971. ص 47.

1921) اشتباكات عنيفة بين العرب والصهاينة، وهجوم على مستوطنات صهيونية، وأهداف بريطانية.

وتعد انتفاضتي القدس 1920ويافا 1921 أشهر هذه الانتفاضات. وكان موقف العائلات الفلسطينية منهما هو موقف "المتفرج أو المهدئ"![63]

ما قبل النكبة

واكب الشعر في فلسطين مسيرة الشعر العربي في نموه ومسايرته لقضايا الأمة محافظاً على قوميته وخصوصيته الفلسطينية عبر محطات زمنية متتالية في ظل نضوج القضية الفلسطينية في الوعي الجمعي لدى الجمهور العربي وصولا إلى عالمية الشعر والقضية وهنا نبدأ.

ففي النصف الأول من القرن العشرين، كان الاهتمام الأكبر موجهاً إلى الأناشيد الوطنية العامة مثل قصيدة (موطني) للشاعر إبراهيم طوقان، أو الجهادية المنبثقة من عمق ثورة القسام والثورة الكبرى عام 1936، كقصيدة (دعا الوطن الذبيح إلى الجهاد) للشاعر الشهيد عبد الرحيم محمود.

كان الشعراء كغيرهم يستشعرون المؤامرة، فهم لم يكونوا يستطيعون أن يتصوروا حجمها أو حجم الخداع والتخاذل فيها.. فكما أنه من غير الممكن أن يتصور أحد الآن قبول مسلم بسقوط مكة المكرمة بأيدي اليهود، فقد كانت استحالة التصور هذه تنطبق على بيت المقدس!.. لذلك ندرت القصائد التي تتناول القدس خاصة وأن المستوطنات اليهودية كانت تُنشأ في الغالب على السواحل بعيداً عنها لعدة أسباب لا مجال لذكرها الآن.. بل إن الكثيرين استنكروا قصيدة للشاعر عبد الرحيم محمود اعتُبرت فيما بعد من

[63] الحوت، بيان نويهض، ص 147.

إبداع حدس الشعراء حيث ألقاها بين يدي الأمير سعود بن عبد العزيز في 14-8-1935، أي قبل النكبة بـ13 عاماً وقبل النكسة وسقوط القدس بـ32 عاماً[64]. ويقول فيها:

يا ذا الأمير أمام عينك شاعر ضمت على الشكوى المريرة أضلعه

المسجد الأقصى أجئت تزوره أم جئت من قبل الضياع تودعه؟

بين النكبة والنكسة

كان للنكبة أثرها الأقوى في توجيه الشعر العربي عامة والفلسطيني على وجه الخصوص نحو استنكار الهمجية الصهيونية والصمت العربي وتخاذل البعض عن نصرة فلسطين وحمايتها، فاتجه الشعراء إلى تمجيد النخوة وخلق الهمة والصمود ودعوة العرب لنصرة القضية. وكان موقف الشعراء الشعبي هو عدم السكوت عما قام به الحكام من التخاذل الذي كان له الدور الكبير في النكبة خاصة في قضية الأسلحة الفاسدة.. وإن كان الأبرز في دعوتهم يظهر مدى استنكارهم للتخاذل العربي.

من هذا الجو خرجت قصيدة عمر أبو ريشة الشهيرة (بعد النكبة) أو (نخوة المعتصم) أو (أمتي)، عام 1949، ونختار منها أبياتها الشهيرة التي تشير إلى ذلك التخاذل[65]: (ديوان: عمر أبو ريشة 7-9).

أمتي هل لك بين الأمم منبر للسيف أو للقلم

ألإسرائيل تعلو راية في حمى المهد وظل الحرم

[64] القدس في الشعر العربي، بقلم ياسر عمر، من إصدارات مؤسسة فلسطين للثقافة.

[65] المرجع السابق.

رب وامعتـــــصماه انطلقـــــت مـــلء أفـــواه البنـــات اليـــتّم

لامـــــست أســـــماعهم لكنهـــا لم تلامـــس نخـــوة المعتـــصم!

لا يـــلام الـــذئب في عدوانـــه إن يـــك الراعـــي عـــدو الغـــنم

كما أن هناك عدداً من الشعراء تناول موضوع القدس قبل سقوطها متخوفاً من التفريط بها، بل إن الشاعر زكي قنصل (وهو مسيحي مشرقي) تنبأ في سنة 1960 بأن هدف السلام (أي الهدنة التي كانت معقودة وقتئذ) الذي تسعى إليه قوى الهيمنة إنما هو للتفريط بالقدس فقال في قصيدة (خرافة السلام)[66] :

هـل لي إلى مهـد الـسلام سـبيل الليـــل داج والطريـــق طويـــل

لهفي على القدس انطوت أعلامها وكبَتْ بأشـبال النـضال خيـول

إنّـا شـهدنا مـن روايـة سـلمكم فـصلاً، فقـزّز نفـسَنا التمثيـل

القـدس مـسرحه، وأولاد الخنـى أبطالـــه وعظاتـــه التنكيـــل

أمـــا ضـــحاياه فـــشعب آمـــن أرضى الإلـــه فغالـــه قابيـــل

وهنا نلحظ مدى التحول لدى شعراء المرحلة تجاه استنهاض الهمم واستعادة الدور العربي إلى مربع المواجهة والصمود.

[66] زكي قنصل: الأعمال الكاملة، ص 36.

حركة مهدت لظهور ما عرف بأدب المقاومة أو الشعر المقاوم الذي بدت ملامحه أكثر جلاء في الفترات اللاحقة.

وعن التكاتف الديني بين الإسلام والمسيحية في استحضار قدسهم العربية يستذكر إدمون شحادة (1933-) من الناصرة في قصيدته "مدينة السلام والآلام" أغنية فيروز، فيبدأ قصيدته باقتباس مطلعها "شوارع القدس العتيقة"، ثم يقول[67] :

بحزنها العتيق

تعيد صورة الأسطورة

...

فتشرئب في زوايا العطر والبريق

أنشودة الأيام والسنين

أسير مغرما

بلهفة البراءة النقية

وفي التفاف كل منحنى

حكاية لحارس شرس

إنه يرى في القدس صراع تهليلة الطفلة ذات القبعة الحمراء مع الذئب، وكذلك

[67] شحادة، إدمون: مواسم الغناء وجراح للذاكرة، دار المشرق، شفا عمرو، 1994، ص105-112.

obeikandl.com

يستذكر قصة الأمير حامل الأختام، وهو يوقع في ذلك مهازل المصير.. يستذكر الحكايات والأساطير من عالم البراءة ليصل إلى شراسة الواقع. يرى الشاعر ضياع الزيتون من خدود حبيبته، وضياع الكروم من عيونها، وضياع عنفوان صدرها، فلا يملك إلاّ أن يتوجه إلى الأسرار والإيمان والصلاة- على نهج ما جاء في "زهرة المدائن"[68] :

يا لهف الكنائس المنزرعة في كل أشواك الحقول

وفي عيون حاملي صليبها

وقبة الأجراس في أعيادها

تتابع الفصول

ولكنه ومن خلال إحساس عربي بالقضية يتضامن مع موقف المسلم واعتباراته الدينية، لأنه شريكه في الموقع والنضال[69]:

يا بهجة المساجد العالية الأعناق

ويا امتداد ومضة الإيمان

في القلب والشفاه

ووحدة الرحمن

وإذا كنا قد رأينا قصيدة إدمون شحادة- وهو الشاعر المسيحي- تستلهم رموزًا

[68] شحادة، إدمون: مواسم الغناء وجراح للذاكرة، دار المشرق، شفا عمرو، 1994، ص105-112.

[69] المصدر السابق، ص105-112.

إسلامية فإن فدوى طوقان (1919-2003) الشاعرة المسلمة تستلهم هي الأخرى رموزًا مسيحية، وذلك في قصيدتها "إلى السيد المسيح في عيد ميلاده":[70]

يا سيد مجد الأكوان

في عيدك تصلب هذا العام

أفراح القدس

---

[70] طوقان، فدوى: الأعمال الشعرية الكاملة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1993، ص385.

وكثيراً ما ترد رموز القدس الإسلامية والمسيحية في إطار التعبير القومي العربي، فهذا جمال قعوار (1930-) مثلاً يقول:

غير الأقصى

غير القدس

فسور القدس

منيع لا يهدم

(ديوان زينب، ص69)

ونستشهد بأشعار فاروق مواسي- "درب الآلام" و"القيامة"- للتعبير عن المأساة والهمّ الوطني:

كنيسة تدق في أجراسها "قيامة" مسيحيا يا ناصري!

يا درب آلامي أسير صابرا أمشي على إيلام جرح طاهر

(مواسي، فاروق: الأعمال الشعرية الكاملة، القدس، 1987، ص236)

وقد لاحظ عامي إليعاد في دراسته بالعبرية، عن القدس في أدب "عرب إسرائيل" في فترة الانتفاضة (1987-1993)، أن الشعراء الفلسطينيين، يذكرون رموز الديانتين الإسلامية والمسيحية من غير أن يذكروا الديانة اليهودية (ص9) ويرى أن تجاهل اليهود ومعابدهم بارزاً، إذن فاستلهام التاريخ يكون لخدمة الحاضر، فإذا كان الحاضر يجابه اليوم- وبحدة- موقفًا معاديًا متعنتًا، فإن مركز الخلاف يأخذ طابعًا دينيًا وقوميًا معًا، وبناء عليه، فمن الطبيعي ألا تأخذ الرؤية اليهودية حيزًا كبيرًا في الكتابة الفلسطينية.

obeikandl.com

صمتت في عيدك يا سيد كل الأجراس

...

القدس على درب الآلام

تجلد تحت صليب المحنة

تنزف تحت يد الجلاد

والعالم قلب منغلق

دون المأساة

تخاطب السيد المسيح عليه السلام، بأن القدس لم تعد كعادتها تبتهج بأفراح الميلاد فتقرع الأجراس إيذانا بالعيد، ومع أن هذه الأجراس لم تصمت منذ ألفي سنة، إلا أن الاحتلال الإسرائيلي الفاشي في العام 1967 جلل المدينة المقدسة بالحداد.

الاتجاه القومِي

لم يكن الموقف الوطني معزولاً عن الموقف القومي بل يتضمّنها وكما يقول خالد علي مصطفى:" إنّ التشبث بالأرض هو حفاظ علي وجود إنساني يظل مرتبطاً، مهما تعدّدت صور النظر إليه، بوجود قومي، هو المعنى الذي يشير إليه التشبث بالأرض".

هذي الأرض امرأة

في الأخاديد و في الأرحام

obeikandl.com

سر الخصب واحد

قوة السرّ التي تنبت نخلاً

وسنابل

تنبت الشعب المقاتل.

obeikandl.com